تـ.غ: أسماء الصخري الغرمي

لحظات في حب الله

سمية عبد الحليم عويس

منارة الأفكار
للنشر الإلكتروني

جميع الحقوق محفوظة @ منارة الأفكار للنشر الإلكتروني

نوفمبر 2015

لحظات في حب اللّه

تأليف: أ. سمية عبد الحليم عويس

تصميم غلاف: أ. أسماء الصخري

الموقع الإلكتروني للدار

/http://manaretalafkar.blogspot.com

صفحة الدار

https://www.facebook.com/pages/%D8%AF%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%B4%D8%B1-%D9%84%D9%85%D9%86%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%81%D9%83%D8%A7%D8%B1/1042952242382412

لحظات في حب اللّه

((والذين آمنوا أشد حباً لله))

***

أ. سمية عبد الحليم عويس

الإهداء ...

إلى روح أمي التي تركتني دون وداع ..

إلى روحها التي فاضت بعد عناء طويل مع المرض والبلاء

إلى روحها التي أحتسب على الله أن تكون بين أرواح الشهداء ..

أهدي هذا الكتاب لتكون كل كلمة فيه نوراً يضئ لها قبرها وتشفع لها عند ربها فلولا تلك الأم ما خطت يدي حرفاً ولا كلمة .. فلك مني جزيل الشكر والعرفان أيتها الأم العظيمة .. داعية الله أن يجعلك ممن قال فيهم ((ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون))

صدق الله العظيم .

ابتهال ...

ها أنا بين يديك يا سيدي ، تعلم عني كل شئ ، ترى ضعفي وغربتي وتيهي ..

تسمع صراخي وتضرعي وأنيني ..

خلقت فيّ الحب والكره والقرب والنوى ..

جعلت لي سمعاً وبصراً وفؤادا ..

علمتني ما لم أكن أعلم وكان فضلك عليّ عظيما ..

أمرتني بالدعاء فدعوتك ووعدتني بالإجابة فوفيتَ .. سبحانك يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها .. اغفر ذنوبي واستر عورتي وأقل عثرتي واجبر كسري وارحم دموعي وذلتي ببابك يا عزيز .. وحقق لي حلمي فليس لي أحد سواك ..! وما ذلك عليك بعزيز !

1 . اللطف الخفيّ!!

ما أفدح ظلمك أيها الإنسان ...

تنسى إلهك وقد خلقك من تراب ، وعلمك الحكمة وفصل الخطاب ..

خلقك من نطفة فكنت في رحم أمك تنتظر المدد من ربك ، فأمدك بحُسْنِ الخِلقة ((لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)) ثم هدى والديك للحنو عليك ورعايتك ، ولولا ذلك لما وجدت من يرحمك ويكفلك وأنت في المهد لا تملك لنفسك نفعاً ولا مطعماً ولا غذاء ولا كساءً ، فلما كبرت ونما جسمك وفهم عقلك نسيت حق بارئك وخالقك ورازقك وكافلك وانشغلت بالدنيا والناس والشهوات عن ربك ((فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذي خلقك فسوّاك فعدلك ، في أي صورة ما شاء ركّبك)) ؟!

يقول لك معاتباً سبحانه : ((عجباً لك يا ابن آدم ما أنصفتني ، خلقتك وتعبد غيري ، ورزقتك وتشكر سواي ، أتحببُ إليك بالنعم وأن غني عنك وتتبغض إليّ بالمعاصي وأنت فقير إليّ ، خيري إليك نازل وشرك إليّ صاعد))

أيها الإنسان فكّر فيما حولك وانظر ببصرك وأعْمِلْ بصيرتك قبل أن يطمسها رين الذنوب .. هل من خالق غير الله ؟

العالَم باطل ، والله حق

العالم زائل ، والله دائم باقي

العالم متغير ، والله ثابت لا يتحول ولا يتبدل

العالم سجين في حدود الزمان والمكان ، والله محيط بالزمان والمكان لا يتخير في مكان ولا يحل في بدن وليس له عمر ولا يتجسد في صورة وليس له ماضٍ أو حاضر أو مستقبل وإنما هو حضور مطلق وآنٌ مستمر وديمومة أبدية ماثلة في الغيب والشهادة على الدوام

الكامل أبداً .. الصامد أبداً .. الواحد أبداً .. هو الملجأ والأمان من خضم الاضطراب .. تلقي النفوس إليه مراسيها كما ترسو السفن وتلقي بمراسيها إلى القاع الساكن وتستمد ثباتها من ثباته .. فهو الصمد الذي يُصمد إليه .. هو اللطيف .. منتهى اللطف .. ليس له جسم ولا مادة ولا كتلة ولا عقل .. وهذا هو معنى اللطف أي الخفاء المطلق

اللطيف لا تعوقه كثافة ومن ثمَّ فهو يتخلل كل شئ في حضور كامل مع كل شئ في كل وقت في خفاء واستتار .. ((لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)) وهو معنا أينما كنا قريباً منا منتهى القرب بحيث لانراه كما لا يرى الواحد منا سواد عينيه فهو أقرب إلينا من حبل الوريد ..

هو اللطيف : يُسري لطفَه الخفيَّ في رفق ورأفة في جميع مخلوقاته من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون ..

والله جلَّ جلاله لطيف عن أن تدركه الأبصار ومن لطفه الخفي جل شأنه : لطفُه بالأجنة في بطون أمهاتها في ظلماتٍ ثلاث فحفظها وغذّاها وربّاها ..

واعلم أن اللطف بالشئ لا يكون إلا عن عزة وقوة وعلم ((الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز)) .

سرى لطفه في جميع مخلوقاته في دنياهم .. خلقهم وقدّر لهم أرزاقهم وأعمالهم .. وفي الآخرة خصّ المؤمنين باللطف الخفي .. ((إن ربي لطيف لِما يشاء إنه هو الحكيم العليم)) .

اللطيف : يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية ..

فكان ظاهر ما امتحن به يوسف من مفارقة أبيه وإلقائه في الجُب وبيعه رقيقاً ثم مراودة التي هو في بيتها عن نفسه وكذبها عليه وسجنه ، محناً ومصائب ، وباطنُها نعماً وفتحاً .. جعلها الله سبباً لسعادته في الدنيا والآخرة .

فقد يبتلي عباده بالمصائب ويأمرهم بتحمل المكاره وينهاهم عن الشهوات .. لكنّ كل ذلك طرق يوصلهم بها إلى سعادتهم في العاجل والآجل ، وقد حُفّتْ الجنةُ بالمكاره وحُفت النار بالشهوات .. وقد قال صلى الله عليه آله وسلم : ((لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له ؛ إن أصابته سراء فشكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك إلا للمؤمن)) (1)

فهذا فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية التي لا يهتدون إلى معرفتها إلا إذا لاحتْ لهم عواقبها وهذا أمر يضيق الجَنانُ عن معرفة تفاصيله ويحصر اللسان عن التعبير عنه .

عَلِمَ قبل أن يوجد عباده أحوالهم وما هم عاملون ، وما هم إليه صائرون ثم أخرجهم إلى هذه الدار ليظهر لهم معلومه عن الذي علمه فيهم كما علمه ، وابتلاهم من الأمر والنهي ، والخير والشر بما أظن معلومه واستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق ، ولم يكونوا يستحقون ذلك وهي في علمه قبل أن يعلموها فأرسل رسله وأنزل كتبه وشرع شرائعه إعذاراً لهم

إقامة للحجة عليهم لئلا يقولوا : كيف تعاقبنا على علمك فينا ؟ وهذا لا يدخل تحت كسبِنا وقدرتِنا ؟ فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب على معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار .

(1) رواه مسلم في الزهد والرقائق واحمد .

هو اللطيف : اجتمع له الرفق في الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدّرها له من خلقه .

يلطف سبحانه بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه ، ويلطف له في الأمور الخارجة عنه ؛ فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر ، وهذا من آثار علمه ورحمته وكرمه .

يقول ابن القيم رحمه الله :

وهو اللطيفُ بعبده ولعبده

واللُطفُ في أوصافه نوعـــانِ

إدراكُ أسرار الأمور بخبرةٍ

واللُطف عن مواقع الإحســـانِ

فيريك عزته ويبدي لطفه

والعبد في الغفلات عن ذا الشان

اللطيف الخبير : أحاط علمه بالأسرار وخفيات الأمور ومكنونات الصدور وما لَطُفَ ودق من كل شئ ؛ فهو يعلم جميع الوجوه الممكنة له بحيث لا يشد شئ منها عن علمه وخبرته .

يلطف بعبده ووليه الذي يريد أن يمن عليه ويشمله بلطفه وكرمه ويرفعه إلى المنازل العالية وييسره لليُسرى ويجنبه العُسرى فهو يُجرِي عليه من أصناف المحن وألوان البلاء ما علم أن فيه صلاحه وسعادته وحُسن العاقبة له في الدنيا والآخرة كما امتحن الأنبياء بأذى قومهم لهم وبالجهاد في سبيله ،وكما يمتحن أولياءه بما يكرهونه لينيلهم ما يحبون (فيريك عزته ويبدي لطفه) بامتحانك بما تكره وبالعواقب الحميدة والنهايات السارة .

((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))

((الله لطيف بعباده))

سرى بلطفه في جميع مخلوقاته فسبحانه من رب كريم !!

وحظ العبد من اسم ربه ((اللطيف)) جل جلاله أن يتخلق بالرفق واللِين بعباد الله فيتلطف معهم بالطيب من القول .

وقد قيل : من ذكره بعدد مائة وتسعاً وعشرين مرة تداركه اللطف ووسّع الله عليه ما ضاق من أمره .. فهو اسم ينفع في تفريج الكروب .

- أسرار الذكر :

وأسماء الله الحسنى كلها لها أنوار ، فإذا أردت أن تذكر الاسم فلابد من أخذه من عارف ، ليكون معك نور الاسم فلا يضرك ، أما إذا لم يكن مع الاسم نوره الذي يحجب العبد عن الشيطان حضر الشيطان وتسبب في ضرر العبد .

ثم إن العارف يعطي الاسم للمريد بنية قد تكون إدراك الدنيا أو بنية إدراك الآخرة أو بنية معرفة الله فيسلك المريد على حسب نية شيخه ، ومن أراد صرف الشيطان فليتعوذ بالله من وسوسته ويقول : ((سبحان الملك القدوس ، الخلاّق الفعّال)) سبع مرات ، ثم يقول : ((إن يشأ يذهبكم ويأتِ بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز)) وليقرأ سورة يـــس ثم يقول : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، باسم الله الذي لا إله إلا هو ذي الجلال والإكرام ، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شئ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، اللهم إني أعوذ بك من شر الشيطان))

فإنه يُكفى ذلك ، واعلم أنه لو طبقت السماء طبْقاً واشتعلت الدنيا بالفتن ثم أطاع العبدُ ربه في نفسٍ واحد بصدق الملجأ نجاه الله بقدر ما أخلص .

فإذا أردت الصدق بالقول فأكثر من قراءة : ((إنا أنزلناه في ليلة القدر)) .

وإذا أردت الإخلاص في جميع أحوالك فأعن على نفسك بقراءة ((قل هو الله أحد))

وإن أردت السلامة فأكثر من قراءة : ((قل أعوذ برب الناس)) وأقل الإكثار سبعون كل يوم .. إلى سبعمائة .

ومن أراد أن يسلم من أهوال الدنيا والآخرة فليقرأ : ((إذا الشمس كُوِّرت)) .

ومن أراد أن يُكفَ هم الظاهر فليقرأ : ((اقرأ باسم ربك الذي خلق))

ومن أراد أن يُكفَ هم الباطن فليقرأ : ((إنا أنزلناه في ليلة مباركة)) إلى آخرها .

ومن أراد أن تهون عليه المصيبة فليقرأ عقِبها بقلب خالص راضٍ بقضاء الله ((إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها واغفر لي بسببها وما كان من توابعها وما اتصل بها وهو محشو فيها وكل شئ كان قبلها وما يكون بعدها))

ومن أراد أن تنصبَّ عليه الرحمة الغيث فليقل : ((الحمد لله الذي منه بدئ الحمد وإليه يعود كل شئ كذلك ، لا إله إلا هو ، اللهم اغفر لي شركي وظلمي وتقصيري واغفر للمؤمنين والمؤمنات)) .

2 . حقوق سيدك !!

الخواطر التي ترد على الإنسان سبعة :

خاطر الدنيا ، الخاطر الإيماني الأخروي ، خاطر العدو إبليس ، خاطر الملَك ، خاطر الروح العقلي ، خاطر الباري .

وجملة هذه الخواطر تقع على قلب الإنسان مع كل لحظة ولمحة وخطرة ، فأي نوع منها تقوى وغَلب حكم على العبد وملك القلب بقدْر غليته وقوته ، فإذا غلب حزب الله على حزب الشيطان وانحاز العدو الشيطان عن القلب ولم يكن في بنية الإنسان مسكن ولا مأوى له وكان خارجاً عن مملكة الروح . ولم يكن له فيها سطان ولا حكم ((إن عبادي ليس لك عليهم سلطان)) . فغاية ما يقدر عليه الشيطان حينئذ أن يُغيْرَ بكتائب وساوسه فينبغي إذ ذاك سد تلك الثغور وحراستها وغلْقها بالمراقبة متى لاحت غارة للعدو ومثال ذلك كما ورد في الخبر : ((خير الناس أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، فيرعى من كل جانب فإذا أراد أن يخرج من الحد الذي ربطه فيه جذب الحبل فرده)) وهكذا المؤمن إذا ركَّب الروح على النفس والجيد وكانا مركوبين للروح ، فهو حاكم عليهما فكانا مقيدين تحت حكم الروح ، وبهذا يكون الله قد فتح عليه ونوَّر قلبه ، ولا يصل إلى هذه الدرجة إلا من وفقه الله للهجرة إلى الله ((لا هجرة بعد الفتح ولكنها جهاد ونية)) .

وإن لم يصل الإنسان لتلك الدرجة في الدنيا بجهاد نفسه وأهوائها ، بقى مُستضعفاً حتى يقاسي شدائد الأحوال في مواطن الجهاد وحتى يُصفّى منه كل خلق مذموم ولا يدخل الجنة إلا وهو طاهر نقي من صفات الشياطين والفجار والمنافقين ، ((والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله مع المحسنين))

والهجرة من العصيان إلى الطاعة فرض فرضه الله على كل مسلم وهي سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي تمسكوا بها وعُضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة)) وما كان ضلالة فهو ضد الهدى ، والهدى من الإسلام لقوله سبحانه وتعالى : ((من يعتصم بالله فقد هُدِي إلى صراط مستقيم)) .

الاستقامة طريق الجنة :

((إن الذي قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)) وفي الحديث : ((قل آمنت بالله ثم استقم)) فالاستقامة مأخوذة من قولك : قوَّمت الشئ إذا عدلته ، وهو زوال الاعوجاج والمَيْل .

والاستقامة ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة ترك ما خالف السنة واستقامة اللسان والجوارح عن الميل إلى الأعمال القبيحة المخالفة للسنة واتباع الدينا المذمومة .

وأما الباطنة فهي على ضربين :

ـ ضرب في مقام الإيمان للنفس .

ـ وضرب في مقام الإحسان للروح والعقل والقلب .

والإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك .

****

ـ كيف الوصول إلى الله :

وحينئذ تدرك الروح نسبتها إلى الله وتتوجه إليه بكل حبها وشوقها بدل أن يجرها الجسد إلى شهواته . فأنت من وراء ستر الشهوات ومن وراء حجاب الصفة البشرية روح مبرأة عن الشهوة ، عالية على الصفة البشرية لا تميل ولا ترغب ؛ فمغالبة العبد لطبعه هي الدليل على معرفته لنفسه وإدراكه لشرف نسبه باعتباره روحاً تَمُتُّ إلى الله ، وليس جسداً ينتسب إلى التراب ((إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غُرفة بيده)) وذاك هو الشارب على قدر الكفاف ..

يقول الله لعبده : خلقتك لي .. لجواري .. لتكون موضع نظري ومحل عنايتي ، وبنيتُ حولك سداً من كل جانب غيرة عليك ، ثم أردت أن امتحنك ففتحت لك في السد أبواباً بعدد ما خلقتُ وبعدد ما أبديتُ من جواذب الإغراء . وخارج كل باب زرعت لك شجرة وعين ماء باردة ، وأظمأتك حلفتُ بآلائي ما انصرفتُ عني خارجاً لتشرب إلا ضيعتك فلا إلى جواري عدتَ ولا على الارتواء حصلتَ فقد ضللتَ عني ونسيتَ أني أنا الارتواء الوحيد والسكن الوحيد لك .. وإني أنا الله خالق كل شئ .. منى المدد وبي الحياةُ كلُ الحياة .

يا عبدُ .. حصلتَ لك على كل شئ فأين غناك ؟!

فاتك كل شئ فأين فقرك ؟!

أعذتك من النار فأين سكينتك ؟!

أظفرتك بالجنة فأين نعيمك ؟!

إنما أنا سكنك وعندي مقرك وبين يدي موقفك لو علمتَ ..

أنا المنتهى .. وليس دون المنتهى راحة

خلقتك لي .. لتكون موضع نظري وأكون موضع نظرك .. لا أرضى بمثواك في ذكر أو عبادة فأنصبها لك أبواباً وطُرقاً أوصلك منها إلى رؤيتي ((يا أيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كدحاً فملاقيه)) فلا قرار ولا راحة إلا عنده وما عدا ذلك هو الكدْح والنصَب والكبد ((وأنَّ إلى ربك المنتهى)) .

حقيقة العبودية :

((لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول)) !!

من ظن أن عبادة عدد سنين في الأرض هي الثمن الحقيقي لخلود غير متناه في الجنة فهو رجل مجازف

ومن ظن أن الطاعات التي تقدم بها ، سليمة الأداء نقية اللُباب فهو رجل مخدوع .

ومن ظن أن ما نهض إليه من واجبات وما تطوع به من نوافل أرجحَ النعم التي عُجِّلتْ إليه في الدنيا فهو هازل .

((ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله زكي من يشاء))

((فلا تزكوا انفسكم هم أعلم بمن اتقى))

فالاغترار بالعمل رذيلة تُسقط قيمته ، فالواجب أن يتقدم الله للإنسان وهو شاعر بتقصيره موقن أن حق الله علي أربى من أن يقوم بذرة منه وأنه إذا لم يتغمده الله برحمته هلك .. وفي الحديث :

((لن يدخل الجنة أحد بعمله ! قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته))

رواه البخاري .

((من أكرمك إنما أكرم فيك جميل ستره فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك))

فالله ولي النعمة وأهل الثناء أولاً وآخراً ، ظاهراً وباطناً ((هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم))

فإذا رأيت الناس يعلون من قدْرك فالحمد لمن أنشأك جديراً بالرفعة .. ((الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن أنت ذامّاً لنفسك لما تعلمه منه)) وقل كما علمنا الصالحون : اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون ، واجعلني فوق ما يظنون .

وفقرك إلى ربك شديد .. فالعبادة الصحيحة أن تقوم بين يدي الله وأنت أنت وهو هو .. أنت أنت بحقيقتك العارية من غير دعوى ولا تزيُّد .. وهو هو بذاته القدسية من غير انتقاص ولا إفك .

((تحقق بأوصافك يمدك بأوصافه !

تحقق بذلك يمدك بعزه ! تحقق بعجزك يمدك بقدرته ! تحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته))* .

*من حكم ابن عطاء الله السكندري .

((قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ؟ بل هم عن ذكر ربهم معرضون))

((أم لهم آلهة تمعنهم من دوننا ؟ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصحبون)) .

وهكذا سِر في طريقك إليه مصفياً نفسك من الأغيار والأكدار ونجاسات الدنيا ، متحلياً بحبه والتذلل له والخضوع والتسليم والاستغفار ، وتحول عن مواطن الغفلة ومراتع الهوى واركن إليه وقل ((إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك وبذلك أُمرت وأنا أول المسلمين)) .

**** **** **** ****

3 . حب الله

أتيتك راجـياً في حـسن ظــني ... مقــراً بالـذي قد كــان مني
فإني مذنب فــي غير شـــرك ... وأنت عليّ ذو فضلٍ ومَــنِّ
ومــا الأوزار لــو بـلغت جبالاً ... لتقطع مطعمي في العفو عنـي
ومــالي فــي الحياة تليد خـيرٍ ... ليمحوَ زلــتي ويـــــردَّ عني
فمــا قدمت مـــن خيرٍ ولـكن ... أتيتك راجــياً في حسنِ ظني
وجــهلي والــهوى قـد أورداني ... وراء النفس في تــيه التمــني
فروحي إذا ترى المحراب تشدو ... فتأتي النفس في لهـوٍ تغـــني
فإن حـاسبتَ مــالي غير حسبي ... وإن عاقبتَ من ســـيُردّ عني
وإن ترحـم فـجوَّادٌ كـــــريم ... وإن تغفر فذو فضل ومـــــنِّ
فإن شئت الحساب هلكتُ عدلاً ... وإن شئت الحنان عفــوت عني
إلهي مهجتي كلفتْ بطـــــــه ... إقدمـــها صـــداق الحب مني
وفي القربات ما عندي سواهــا ... فخذها قـــربةً لرضـــاك عني
فإني إذ أرى أنوار طـــــــه ... كـــأني قد رأيتك ويْ كـــأني
فقــل للنفس إذا بلغتْ مناهـــا ... قتيل الحـب نلتَ القــرب مـني
فكيف تحب محبوبـــي وتشقـــى ... محـــال بل لك الإحساس مـــني
إلـــهـــي بـالـمذلة بانكســاري ... بسترك حــرمــة الشيـــخ المُسن
إلـــهي شقوتي غــلبت حـــيائي ... فلا تفضحني في ســوءاتِ سني
إلـــــهي سيدي ثقــتي رجـــائي ... وسـعتَ المـــذنبين فــلا تهني
فـــإني قـــد أتيتك بـــغير زادٍ ... ويا غوثـــــــاه إن لم تعفو عني
وقـــــد أحسنتُ بالرحمن ظـني ... فحقق لي الرجـــــاء بحسن ظني

ما أحببت شيئاً أيها الإنسان إلا صرت عبداً لـه ، والله لا يرضـى أن تكون عبداً لسواه ((والذين آمنوا أشد حباً لله)) .

فالحب عبادة .. والعبادة تقوم على الخوف والرجاء وعلى المحبة .

يقول ذو النون المصري : ((إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خاف الله ، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله ، فإذا سكنت درجة الهيبة دامت طاعته لربه ، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء ، فإذا سكنت درجة الرجاء تولد من الرجاء المحبة ، فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه سكن بعدها درجة الشوق ، فإذا اشتاق أداه الشوق إلى الأنس بالله ، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله ، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله في نعيم وسره في نعيم وعلانيته في نعيم)) .

يقول جل شأنه : ((يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم))

آية عظيمة تعرض لمحبة الله ولآثار تلك المحبة فهؤلاء الذين أحبهم الله وأحبوه ذكروا على أنهم بدل من قوم آخرين نزلوا عن هذه المرتبة لم ترشحهم خلالهم ومسالكهم لمحبة الله ؛ بل ما زالوا يتدلون في مسالك السوء حتى عُدوا مرتدين عن الإسلام .

فالارتداد يأتي نتيجة سيرة طويلة من التفريط والالتواء .. يبدأ استثقالاً للواجبات واستحلاءً للآثام ثم عكوفاً على هذه وتمرداً على تلك ثم ميلاً لأهل السوء وانحرافاً عن أهل الخير .

وحين يكون هوى الإنسان مع المبطلين المنحرفين عن الجادة يكون انتصاره لهم فهو مرتد يقيناً عن الإسلام !! ((أولئك الذيم لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم))

فنشوء محبة الله يسبقها اصطفاء خاص ، لأن المحبة سمو يتخير الله له من يشاء ، ومنة تسيل من عين الجود قبل أن تكون كسباً تتجه إليه الإرادة .....

الطريق إلى الحب الإلهي :

لكن المسألة ليست قدرية بحته تستدعي اليأس !! إن المواهب الرفيعة لا تنشأ من كسب الإنسان بل يسبقها استعداد فطري يولد المرء به ولا يد له فيه .. والإيمان نفسه يُعد فضلاً ـ من هذه الزاوية ـ لكنّ التأهيل للعبقرية والنبوغ والمقامات الرفيعة العالية لابد له من كد واجتهاد .. والعمل الصالح كذلك بعد الإيمان الفطري .. يقويه ((سبقوا على مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا باله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم))

فالحب الإلهي إذا انقذف في فؤاد المؤمن فإن الله هو الذي أولاه هذه الشرف ، فهو سبحانه يمنح وده من شاء ومن اصطفى من عباده .. وبديهي أن الله لا يضيع زلفى متودد إليه بل يعطي من تعرض لعطائه ((فاذكروني أذكركم)) أما من أدبر وتولى فلا شئ له إلا الطرد والهوان .

وعندما تتنافس المشاعر في الاستيلاء على قلب العبد فيجب ان تنهزم كل عاطفة أخرى أماما حباله .. فمن أحب اللهَ لم يؤثر عليه شيئاً .

. محبة الله فوق كل شئ :

لا شئ أطيب للعبد ـ كما يقول ابن القيم ـ ولا ألذ ولا أهنأ ولا أنعم لقلبه وعيشه من محبه فاطره وباريه ، ودوامِ ذكره والسعي في مرضاته وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه ، وله خُلق الخلق ولأجله نزل الوحي وأُرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووُجدت الجنة والنار ولأجله شُرعت الشرائع ووُضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس إقامة لذكره الذي هو من توابع محبته والرضا به وعنه ولأجل هذا أمر بالجهاد وضربت أعناق من أباه وآثر غيره وجعل له في الآخرة دار الهوان خالداً مُخلَّداً.

وحب الله قطب رُحى الخلق والأمر الذي مدارهما عليه ولا سبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم فإن محبة الشئ فرع عن الشعور به وأعرف الخلق بالله أشدهم حباً له فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم .

فكما يقول سبحانه ((كل شئ هالكٌ إلا وجهه له الحكم وإليه تُرجعون)) فيا باقي أنت الباقي .. وترديد تلك الجملة يجرد القلب مما سوى الله تعالى فيجري به ما يشبه العملية الجراحية ويقطعه عما سواه ..

إن الإنسان بما أودع الله فيه من ماهية جامعة يرتبط مع أغلب الموجودات بأواصر ووشائج شتى ، ففي تلك الماهية الجامعة من الاستعداد غير المحدود للمحبة ما يجعله يُكنُّ حباً عميقاً تجاه الموجودات عامة فيحب الدنيا العظيمة كما يحب بيته ويحب الجنة الخالدة كما يحب حديقته ، بينما الموجودات التي وجّه الإنسان حبه نحوها لا تدوم بل لا تلبث أن تزول ، لذا يذوق الإنسان دائماً عذاب ألم الفراق فتصبح تلك المحبة التي لا منتهى لها مبعث عذاب معنوي لا منتهى له لتقصيره بحقها فالآلام التي يتجرعها ناشئة من تقصيره هو حيث لم يودع فيه استعداد المحبة إلا ليوجهه إلى من له جمال خالد مطلق بينما الإنسان لم يحسن استعمال محبته فوجهها إلى موجودات فانية زائلة فيذوق وبال أمره بسبب الفراق .

فعندما يردد الإنسان : يا باقي أنت الباقي . يعني بها : البراءة الكاملة من هذا التقصير وقطع العلاقات مع تلك المحبوبات الفانية قبل أن تتخلى هي عنه ، ثم تسديد النظر في المحبوب الباقي وهو الله سبحانه دون سواه .

[لا باقي بقاءً حقيقياً إلا أنت يا إلهي .. فما سواك فان زائل ، والزائل غير جدير بالمحبة الباقية ولا العشق الدائم ، ولا بأن يشد معه أواصر قلب خُلق أصلاً للأبد والخلود] *

* من أقوال الشيخ بديع الزمان النورْسِي

المحبوب الواحد الأحد :

((قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد)) .

أحدية الذات الإلهية هي من صميم رسالة الإسلام ،وإن الأنسان المسلم ليبلغ إسلامه بمقدار ما تَمثَّلَ وحدانية الله إيماناً وفكراً وشعوراً .

فشهادة التوحيد منطوية على أكثر من مفتاح يؤدي بقائلها عن إيمان بصير إلى ذلك الاتساق الذي يوحد شخصه في رؤية تخلو من صراع دوافعه الباطنية مع بعض ..

فمن ناحية : تتضمن الشهادة إثباتاً من الفرد لوجود ذاته حقيقةً قائمةً برأسها وذلك بقوله : ((أشهد) وتتضمن إلى جانب ذلك إقراراً من تلك الذات بوجود ذوات أخرى سواها فهي ليست إلا فرد من جماعة .

وتتضمن إيمان الذات الناطقة بالشهادة ، إيمانها بألاَّ إله إلا الله ..

وبهذا يتكون في نفس الوحِّد ضمير ديني يستمد كيانه وقوته من الإيمان بوحدانية الله فهو الحق الذي ليس بجواره باطل ..

ويصبح هذا الضمير كفيلاً بأن يزيل لصاحبه عوامل القلق والتوتر لأن هذه العوامل إنما تنتج عن مغريات متعارضة قد يجد الإنسان نفسه ينجذب لهذا أو لذاك في وقت واحد مع إستحالة أن يتحققا معاً فيحس وكأنه ممزق بين قطبين ، وهنا لابد أن يكون على بصيرة : أي الجانبين أكثر اتساقاً مع بنائه وكيانه فينحاز إليه إنقاذاً لذاته .

فالتوحيد في أعماقه تناسق في حياة الإنسان الأخلاقية بحيث تنتظم مجموعة القيم في ترتيب يبين أيها أولى من أيها إذا ما تعارضت في موقف معين .

فعقيدة المسلم إذا ما رسخت في صدره كانت ضميراً يهديه إلى جادة الطريق وتضمن له ألاّ تتعدد معاييره الخلقية : فمعيار أمام ولي الأمر ، ومعيار آخر أمام الناس ، ومعيار ثالث يقيمه حين يخلو بنفسه إذا استطعنا تربية هذا الضمير الديني عند أبنائنا كان ذلك درعاً يحميهم من الذل والظلم والتيه فحارس المسلم هو ضميره .. ما ينفك يذكره كلما وجد في أمره عسراً أن :

[اللهَ أحد وأن الله صمد وأن الله أكبر]

**

أصلُ المحبة مقامُ الإحسان :

ينشأ الإحسان من كمال الأيمان بالله وأسمائه وصفاته ، وهو مشهد المراقبة : ((أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك)) كأنك ترى الله سبحانه وتعالى فوق سماواته مستوياً على عرشه ـ ونحن نؤمن

بقوله عن نفسه سبحانه ((الرحمن على العرش استوى)) ونؤمن بذلك دون تبديل ولا تأويل بل هو استواء كما يليق بجلاله ـ يتكلم بأمره ونهيه ويدبر أمر الخليقة فينزل الأمر من عنده ويصعد إليه وتُعرض أعمال العباد وأرواحها عند الموافاه عليه ، فيشهد المرء ذلك بقلبه ويشهد أسماء الله وصفاته ، ويشهد الله قيوماً حياً سميعاً بصيراً عزيزاً حكيماً آمراً ناهياً ، يحب ويغضب ، لا يخفى عليه شئ من أعمال العباد ولا أقوالهم ولا بواطنهم بل يعمل خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ومشهد الإحسان أصل عبادات القلوب كلها فإنه يوجب الإجلال والتعظيم والخشية والمحبة والإنابة والتوكل والخضوع لله سبحانه والذل له ، ويقطع الوساوس وحديث النفس ويجمع القلب والهم على الله ؛ فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان .

ـ المراقبة :

فإذا تسربل المؤمن بثوب المراقبة امتلأ قلبه بالحب والخضوع فإذا صلّى استحضر مشهده أمام الله وتمثل نفسه حضرته وصلى صلاة مودع غائب عن الكون بشهود الله [فالصلاة محل المناجاة ومعدِن المصافاة ، تتسع فيها ميادين الأسرار وتشوق فيها شوراق الأنوار ، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها]* وفي بعض الأخبار : ((أن العبد إذا قام للصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه ، وواجهه بوجهه ، وقامت الملائكة من لدن منكبيه إلى السماء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وأن المصلي لينشر عليه من البر من عنان السماء إلى مفرِق رأسه ويناديه مناد : لو يعلم المناجي من يناجي ما انفتل ، وأن أبواب السماء تفتح للمصلي ، وأن الله تعالى يباهي ملائكته بصفوف المصلين)) فتأمل !!

وفي التوراة :

((يا ابن آدم : لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً ، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك والغيب رأيتَ نوري))

وقد قيل : إن الرقة والبكاء وذلك الفتوح الذي يجده المصلي في قلبه من دُنو الرب من القلب .

وبهذا تكون الصلاة منهاه عن الإثم ودافعة لأدواء القلوب ومطردة للداء عن الجسد ومنورة للقلب ومبيضة لوجه ومنشطة للجوارح والنفس ، وجالبة للرزق ، ودافعة للظلم ، وناصرة للمظلوم وقامعة لأخلاط الشهوات وحافظة للنعمة ودافعة للنقمة ومنزلة للرحمة وكاشفة للغمة ، حافظة للصحة ومفرحة للنفس ،

* من حكم ابن عطاء الله السكندري رحمه الله تعالى .

مذهبة للكسل ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر مغذية للروح جالبة للبركة مبعدة عن الشيطان مقربة من الرحمن ، وسر ذلك كله أن الصلاة صلة العبد بربه تعالى ، وعلى قدر صلة العبد بربه تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها وتفيض عليه من مواد التوفيق من ربه عز وجل ، والعافية والصحة والغنيمة والغنى ((ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب)) ، ((ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسرا)) ، ((ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويُعظم له أجرا)) .

**

في رحاب المحبة والمحبين:

اعلم ـ رحمك الله وأيدك بلطفه ـ أن السائرين إلى الله أناروا السبيل لمن بعدهم بوصايا ذهبية ودروس سندسية ليستنير قلب المريد فيهتدي بأنوار السابقين ويقتدي بأفعالهم وقد خُلدوا بذكر مولاهم فذهبت أجسادهم وبقيت أرواحهم وآثارهم فمن بورك له في عمره أدرك في يسير الزمن من منن الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبادة ، ولا تلحقه الإشارة . *

يقول ابن عطاء الله السكندري :

[كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى اله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار ، وهو لم يتب من هفواته ؟!]

[لا ترحل من كون إلى كون فتكون كحمار الرحى ، يسير ، والمكان الذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه ، ولكن من الأكوان إلى المكوِن " وأن إلى ربك المنتهى " وانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم " فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه " فاهم قوله عليه الصلاة والسلام وتأمل هذا الأمر إن كنت ذا فهم والسلام] .

[لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول]

[من عرف الحق شهده في كل شئ ، ومن فنى به غاب عن كل شئ ، ومن أحبه لم يؤثِر عليه شيئاً]

[إنما حجب الحق عنك شدة قربه منك]

* من حكم ابن عطاء الله السكندري .

[فَزِّع قلبك من الأغيار يملأه بمعارف الأسرار]

[لا تنفعه طاعتك ولا تضره معصيتك ، وإنما أمرك بهذه ونهاك عن هذه لما يعود عليك]

[تطلعك إلى بقاء غيره دليل على عدم وجداتك له ، واستيحاشك منه لفقد ان ما سواه دليل على عدم وصلتك به]

[الخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه وتقل عوائقك ثم لا ترحل إليه] .

من أشواقهم إليه يبدأون وإلى مثولهم بين يديه ينتهون .

فإذا كان سبحانه " الآخر " الذي يقطعون الأعمار وثْباً في السفر إلى رضوانه وجلاله فهو أيضاً " الأول " الذي يبدأون الرحلة من دعوته ومشيئته وتوفيقه ومن أرادته التي تقول للشئ كن فيكون ومن حوله وقوته اللذين لولاهما ما قدر أحد على حركة أو على سكون .

[إذا قلت له يا رب أين الطريق إليك جاءك النداء : خلّ نفسك وتعال !]

ولو خطرتْ لي في سواه إرادةٌ على خاطري سهواً قضيتَ بردتي

فالتخلي عن النفس كما يريد أهل الله هو في الحقيقة أمثل طريق لاستبقاء النفس وإعلائها ، فالخروج بها من ظلماتها إلى دائرة الضوء الذي يفيئه ويعكسه جلال ربها وبهاؤه بعث جديد لها في أكمل نمط وأحسن تقويم .

[كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً]

عندها ستختفي نفسك دون تكلف أو محاولة .. سينهار غرورها الكاذب وتتلاشى كبرياؤها الباطلة .. ستظهر حقيقتها كخلق ضعيف من خلق الله .. كطفل فوق ثبج بحر عريض قامت أمواجه ، وليس إلى نجاته سبيل ، تمتد إليه في هدوء واثق يد حانية وقادرة ، تقهر البحر وتُذِل الموج وتجعل منه ـ هو الطفل الساذج المرعوب ـ سيد البحر والموج والخطر والهول !!

أجل .. عندنا تتعلق بعظمة ربك وتحقق من عجز نفسك فآنئذ تكون قد تخليت عنها وتكون في نفس الوقت ولنفس السبب قد وحدتها وامتلكتها وربحتها .

**

صفات المحبين :

ذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في الفتوحات أن جملة أوصاف المحبين أن يكون أحدهم مقتولاً تالفاً في محبوبه سائراً إلى حضرته على الدوام ، دائم السهر كامن الغم راغباً في الخروج من كل شئ يشغله عنه من شهوات الدنيا والآخرة ، فهو متبرم من صحبة كل شئ يحجبه عن محبوبه .

كثير التأوه يستريح إلى كلام محبوبه وذكر اسمه ((إن ابراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب)) يستقل المثير من نفسه في حق محبوبه ويستكثر القليل من محبوبه خارج له عن نفسه بالكلية .

يصبر على الضراء التي تنفر منها الطباع ، قوام بما كلفه محبوبه ، وطن نفسه على محبة كل شئ يريده محبوبه ليس له معه نفْس بل كله لمحبوبه ، حاله يترجم عنه لسكره من المحبة ، يختار مراضي محبوبه على جميع أغراض نفسه .

**

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح فمنها:

ـ حب لقاء الله تعالى في الجنة ؛ فإنه لا يُتَصَوَر أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب لقائه ومشاهدته وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغي أن يكون محباً للموت غير فارّ منه ((من احب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)) " أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والدرامي والنسائي "

ـ أن يكون أنسه بالخلوة ومناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه ؛ فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله كيف تصح محبته ؟!

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((جعلت قرة عيني في الصلاة)) (1)

ومن قرَّت عينه بصلاته في الدنيا قَرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة وقرت عينه به في الدنيا أيضاً ، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

فتكون دواعي قلبه وجواذيه مُنساقة إلى الله طوعاً ومحبة وإيثاراً كجريان الماء في منحدره وهذه حال المحبين الصادقين ، لذاتهم الروحانية القلبية أقوى وأتم من اللذات الجسمانية فلا يجدون في أوراد العبادة كلفة ، ولا شئ ألذ لهم من خدمة محبوبهم وطاعته .

ولا يزال السالك عرضة للآفات والفتور والانتكاس حتى يصل إلى هذه الحالة فحينئذٍ يصير نعيمه في سيره ولذته في اجتهاده ، وعذابه في فتوره ووقوفه .

(1) جزء من حديث ((حُبب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجُعلت قرة عيني في الصلاة)) أخرجه أحمد والنسائي والحاكم عن أنس

ـ أن يكون صابراً على المكاره ((والصبر من آكد المنازل في طريق المحنة وألزمها للمحبين ، وهو من أعرف المنازل في طريق التوحيد وأبينها وحاجة المحبين إليه ضرورية ؛ فبه يعلم صحيح المحبة من معلولها وصادقها من كاذبها فإن بقوة الصبر على المكاره في مراد المحبوب يُعلم صحة محبته ، فأعظم الناس محبة لله أشدهم صبراً ولهذا قال الله عن أوليائه : ((الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار))

إنا وجدناه صابراً ، نعم العبد إنه أوّاب)) وأمر حبيبه محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : ((واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)) وقال ((واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون))

ـ ومنها : أن لايؤثر على الله شيئاً من محبوبات النفس فمن آثر على الله شيئاً من محبوباته فقلبه مريض .

ـ ومن علامات محبة الله للعبد كذلك إيثار محابّ الله على محابّه وأهوائه فيتجنب اتباع الهوى ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل ، فإن المحب لمن يحب مطيع :

شرط المحبة أن توافق من تحب على محبته بلا عصيان

فإذا دعيت له المحبة مع خلافك ما يحب فإنت ذو بهتان

لكن العصيان لا ينافي أصل المحبة بل يضاد كمالها ، ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحده (أي يقيم عليه الحد) إلى أن أُتى به يوماً فحده فلعنه رجل وقال : ما أثر ما يؤتى به !! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله)) : أخرجه البخاري .

فما عمر القلب بشئ كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ـ ومن والعلامات كثرة ذكر العبد لربه ، لا يفتر عن الذكر لسانه ولا يخلو عنه قلبه ؛ فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة ومن ذكر ما يتعلق به ((إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم وعلى ربهم يتوكلون)) فالمحب الصادق إذا ذكر الله خالياً وجل قلبه وفاضت عيناه .

ـ ومنها : أن يغار لله فيغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون ، وأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرة قال صلى الله عليه وسلم : ((إن الله يغار وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله)) أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي .

* في ظلال المحبة : عبد الهادي حسن وهبي / بتصرف .

ـ ومنها أن يرضى بما يصيبه في سبيل محبوبه لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب فيكون ألذ الأشياء عنده ما فيه رضى محبوبه ولو كان في ذلك هلاك نفسه ، وهذا لا يكون إلا للنفوس المظمئنة سيما إن كان ما أصيبت به سببه القيام لله .

من أجلك جعلت خدي أرضاً للشامت والحسود حتى ترضى

ـ ومن علامات محبة الله محبة كلامه فلا شئ عند المحبين أحلى من كلام محبوبيهم فهو لذة قلوبهم وغاية مطلوبهم ولهذا لم يكن شئ ألذ لأهل المحبة من سماع القرآن*.

المحبة كمال العبودية :

يقول أحد العارفين : ((دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام ، فلم أتمكن من الدخول حتى جئت باب الذل والافتقار ؛ فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته فإذا هو ـ سبحانه ـ قد أخذ بيدي وأدخلني عليه)) !!

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول ((من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية))

فالذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله وترميه على طريق المحبة فيفتح له منها باب لا ينفتح له من غير هذا الطريق ، وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب نوع آخر وفتح آخر ..

والسالك بهذه الطريق غريب عن الناس وهم في واد وهو في واد .. وتسمى هذه الطريق طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب .. وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده فإنه سبحانه يحب التوابين المتطهرين .

4 . الرضا بالله

إن عرفان ذي الجلال لعز وضياء وبهجة وسرورُ
وعلى العارفين أيضاً بهاءٌ وعليهم من المحبة نورُ
فهنيئاً لمنْ عرفـكْ إلــهي هو والله دهرُهُ مسرورُ

قال أبو يزيد رضي الله عنه :

((غلطت في بداية أمري في أربعة أشياء :

ـ توهمت أني أذكره وأعرفه وأحبه وأطلبه ، فلما تنبهت رأيت ذكره سبق ذكري ، ومعرفته سبقت معرفتي ، ومحبته أقدم من محبتي ، وطلبه لي أولاً حتى طلبته))

فهو البادئ بالإحسان قبل توجه العابدين ، وهو الوهاب ثم هو لما وهبنا من المستقرضين .

فيا ذاكر الذاكرين بما به ذكروه ، يا بادئ العارفين بما فيه عرفوه ، يا موفق العابدين لصالح ما عملوه ، من ذا الذي يشفع عندك إلا بإذنك ؟ من ذا الذي يذكرك إلا بفضلك ؟

ملكتنا ثم اشتريت منا ما ملكتنا ليثبت لنا معك نسبة ، ثم استقرضت منا ما اشتريته ثم وعدتنا عليه من العِوض أضعافاً بينت فيها أن نعمك وعطاياك بعيدتان أن تشوبهما العلل .

وفي بعض الأخبار :

[عبدي .. أنا الله الذي أقول للشئ كن فيكون فأطعني أجعلك تقول للشئ كن فيكون]

وفي الحديث الصحيح : ((فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداًَ ومؤيداً ، إن سألني أعطيته))

فيا أيها السائر إلى ربك اعلم أن التأدب مع الله وكمال العبودية له إنما يكون بالفرح بمواطن قضائه والتسليم لمواضع أقداره فلا أسف ولا حزن ((إنا كلَ شئ خلقناه بقدَر)) قال صلى الله عليه وسلم كما ورد في الأثر : ((كل شئ بقضاء وقدر حتى العجْز والكيْس))

وفي الحكم النوارينة :

[أرح نفسك من التدبير ؛ فما قام به غيرك لا تقم به أنت لنفسك] .

والتدبير في اللغة : هو النظر في الأموروأوخرها .

وفي الاصطلاح كما قال الشيخ زورق : تقدير شؤون يكون عليها في المستقبل بما يُخاف أو يُرجى بالحكم لا بالتفويض ، فإن كان معه تفويض وهو أخروي فنية خير أو طبيعي فشهوة أو دنيوي فأمنية .

فالتدبير عنده على ثلاثة أقسام :

1- قسم مذموم وهو الذي يصحبه الجزم والتصميد سواء كان دينياً أو دنيوياً لما فيه من قلة الأدب وما يتعجله لنفسه من التعب إذ ما قام به الحي القيوم عنك لا تقوم به أنت عن نفسك ، وغالب ما تدبره لنفسك لا تساعده رياح الأقدار وتعقبه الهموم والأكدار فمن ترك التدبير فهو في راحة وفي الأثر : ((إن الله جعل الرَوح والراحة في الرضى واليقين)) .

2 - وقسم مطلوب وهو تدبير ما كلفت به من الواجبات وما ندبت إليه من الطاعات مع تفويض المشيئة والنظر إلى القدرة وهذا ما يسمى بالنية الصالحة وفي الحديث ((نية المؤمن خير من عمله)) وقد قيل :

[العلم كله في كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيع ما اسْتُكفيت]

فكل مختارات الشرع ومطلوباته ليس لك منه شئ إنما هو مختار الله لك واسمع وأطع وهذا محل الفقه الرباني والعلم الإلهامي .

3 - وقسم مباح وهو التدبير في أمر دنيوي أو طبيعي مع التفويض للمشيئة والنظر لما يبرز من القدرة غير معول على شئ من ذلك وعليه يُحمل قوله صلى الله عليه وسلم ((التدبير نصف العيش))

سلم لسلمى وسر حيث سارت واتبع رياح القضا ودُر حيث دراتْ

وهذا هو التدبير بالله وهو شأن العارفين المحققين

ما ثَمَّ إلا مـــــا أرادْ فاترك همومك وانطرح

واترك شواغلك التي شُغـــلتَ بـــها تســـترح

**

وقال ابن عطاء الله السكندري :

[اجتهادك فيها ضُمِنَ لك وتقصيرك فيما طُلب منك دليل على انطماس البصيرة منك]

فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة فارجع إلى وعد الله واقنع بعلم الله ولا تحرص ففي الحرص تعب ومذلة .

**

أي العمل أفضل ؟

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله وتصديق برسوله (صلى الله عليه وسلم) وجهاد في سبيله . قال : أريد أهون من هذا !!

قال : لا تتهمه في شئ قضاه !! أخرجه أحمد وحسنه

وعن زيد بن أسلم مولى ابن عمر قال : قال موسى صلى الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم : [يا رب ، من الأمة المرحومة ؟ قال : أمة أحمد يرضون بالقليل من العطاء ، وأرضى منهم بالقليل من العمل ، وأدخلهم الجنة بأن يقولوا : لا إله إلا الله] إسناده حسن وهو من الاسرائيليات.

وفي الحديث الصحيح :

[المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كلٍ خير ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ؛ فإن أصابك شئ فلا تقل لى أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان] .

وفي حديث إسناده صحيح ورجاله رجال الصحيح :

[إن الله عز وجل يبتلي عبده فيما أعطاه فمن رضى بما قسم الله له بارك الله له فيه ووسعه ومن لم يرضَ لم يبارك له فيه] .

**

منزلة الراضين :

عن عمر بن ذر قال : ((بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول : إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى الله لهم رضوا به ، لهم في الجنة منار ليغبطهم بها الشهداء يوم القيامة)) إسناده منقطع وهو ضعيف .

وكان مما أوحى الله إلى داود عليه السلام :

[يا داود إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك ، ولا أحط لوزرك من الرضا بقضائي ، ولن تلقاني بعمل هو أعظم لوِزرك ولا أشدَ لسخطي عليك من البَطَر، فإياك يا داود والبَطَـر] من الإسرائيليات .

وكان عمر بن عبد العزيز يقول :

((مالي في الأمور هوى سوى مواقع قضاء الله عز وجل فيها))

ولله در الأعرابي الذي قال وقد هلكت إبله :

لا والذي أنـــا عبدٌ في عبادته لـــولا شماتة أعاديهْ أظـن

ما سرني أنَّ إبلي في مباركها وأنَّ شيئاً قضاه الله لم يكن

إن الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين .

5 . وقفات!!

يا عبد ..

أنا القريب منك لولا قربي منك ما عرفتني .

وأنا المتعرف إليك لولا تعرفي إليك ما أطعتني .

يا عبد ..

الجأ إليّ في كل حال أكن لك في كل حال .

يا عبد ..

أنا أولى بك من علمك .. وأنا أولى بك من عملك .. وأنا أولى بك من رؤيتك .. فالعلم لا يواريك عني ولا العمل يعصمك مني والرؤية لا تغني مني .

**

إفادة ..

لابد من عبادة ومعرفة وزهادة لكل عابد وعارف وزاهد .

لكن من غلب عليه طلب العلم كان عابداً ومعرفته وزهده تابع لعبادته .

ومن غلب عليه ترك الفضول كان زهداً ، وعبادته ومعرفته تابع لزهده .

ومن غلب عليه النظر للحق بإسقاط الخلق كان عارفاً وعبادته وزهده تابع لأصله .

والله أعلم .

**

تعريف :

على العبد أن يراعي حقوق ربه ، والرعاية هي : حراسة متيقظ لا يتسهل في حصول أسباب الضيعة وحقيقتها : صون ملحوظ بعين العناية من كل جهاته . وغايتها : إنزال مخصوص بالمحبة منزلة نفس المخصوص.

أما ما يليها فهو المراقبة وهي : حذر يمنع صاحبه من الغفلة عن ملحوظه

وحقيقتها : إعمال الفكر في استخراج أسباب النجاة . وغايتها : مطالعة علام الغيوب في كل شء من كل الجهات .

واعلم ((أن الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده فقد أعوزه وجود الأنوار وحُجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار))* .

((أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد))

**

تعلم وافهم :

أوحى الله إلى موسى عليه السلام :

((كن كالطير الوحداني ، يأكل من رؤوس الأشجار ، ويشرب من الماء القراح ، إذا جنه الليل آوي إلى كهف من الكهوف استئناساً بي واستيحاشاً ممن عصاني .

يا موسى آليت على نفسي أني لا أتمم لمدبر من دوني عملاً ، يا موسى لأقطعن امل كل مؤمِلٍ أمل غيري ولأقصمن ظهر من استند إلى سواي ولأطيلن وحشة من استأنس بغيري ولأعرض عمن أحب حبيباً سواي)) .

((يا موسى إن لي عباداً إن ناجوني أصغيت إليهم وإن نادوني أقبلت عليهم وإن أقبلوا عليّ أدنيتهم ، وإن دنوا مني قربتهم ، وإن تقربوا مني اكتنفتهم ، وإن والوني واليتهم ، وإن صافوني صافيتهم ، وإن عملوا لي جازيتهم ، هم في حماي وبي يفتخرون ، أنا مدبر أمورهم ، وأنا سايس قلوبهم ، وأنا متولي أحوالهم ، لم أجعل لقلوبهم راحة في شئ إلا في ذكري ، فذكري لأسقامهم شفاء وعلى قلوبهم ضياء ، لا يستأنسون إلا بي ولا يحطون رحال قلوبهم إلا عندي ولا يستقر بهم القرار إلا في الإيواء إليّ))

**

حكمة :

أوحى الله إلى بعض أصفيائه ، وقد أمره الله بالتفكر في خلوته بسره ولسانه ،فقال : يا رب خلقتني ولم تستأمرني ، ثم تميتني ولا تستشيرني ، وأمرتني ونهيتني ولم تخيرني ، وسطلت عليّ هوى مُرديا وشيطاناً مُغويا وركبت في نفسي شهوات مركوزة ، وجعلت بين عيني دنيا مزينة ، ثم خوفتني وزجرتني بوعيد وتهديد وقلت : ((استقم كما أُمرت)) ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيلي ، واحذر الشيطان ان يغويك ، والدنيا لا تغرنك ، وتجنب شهواتك لا ترديك وآمالك وأمانيك لا تلهيك .. ولا تنسَ الآخرة كما لم تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض .. فلا أدري كيف أعمل ولا أهتدى أي شئ أصنع فأدركني يا رب وخذ بيدي ودلني على سبيلك سبيل نجاتي فأوحى الله إليه:

[يا عبدي ما أمرتك بشئ تعاونني فيه ، ولا نهيتك عن شئ كان يضرني إن فعلتَه بل إنما أمرتك لتعلم أن لك رباً وإلهاً هو خالقك ورازقك ومعبودك ومنشئك وحافظك وصاحبك وناصرك ومعينك ولتعلم بأنك محتاج في جميع ما أمرتك إلى معاونتي ، وتوبتي وهدايتي ، وتيسيري وعنايتي ، وأنه لا يخفى عليّ من أمورك صغير ولا كبير ، سراً وعلانية ، وليتبين لك وتعرف أنك مفتقر ومحتاج إليّ ولابد لك مني فعند ذلك لا تعرض عني ولا تتشاغل عني ولا تنساني ولا تشتغل بغيري بل تكون في دائم الأوقات في ذكري وفي أحوالك وجميع حوائجك تسألني وفي جميع تصرفاتك تخاطبني وتكون منقطعاً إليّ من جميع خلقي ومتصلاً بي دونهم وتعلم أني معك حيث ما تكون أراك وإن لم ترني .. فعند ذلك أقربك مني وأوصلك إليّ وأرفعك عندي وتكون من أوليائي وأصفيائي وأهل جنتي في جواري مع ملائكتي مكرماً مفضلاً مسروراً فرحاً منعماً ملذذاً آمناً فلا تظن يا عبدي ظن السوء بي ولا تتوهم عليّ غير ما يقتضيه كرمي وجودي واذكر سالف إنعامي عليك وقديم إحساني إليك ، وجميل آلائي لديك ؛ إذ خلقتك ولم تك شيئاً مذكوراً ، خلقاً سوياً ، وجعلت لك سمعاً لطيفاً وبصراً حاداً وحواساً داركة وقلباً ذكياً وفهماً ثاقباً وذهناً صافياً ولساناً فصيحاً وبنية تامة وصورة حسنة وأعضاء صحيحة وأدوات كاملة وجوارح طائعة ، ثم ألهمتك الكلام والمقال وعرفتك المنافع والمضار فيا عبدي إذا تعذر عليك فعل شئ مما أمرتك به فق : ((لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)) كما قالت حملة العرش لما ثقل عليهم حملُه ، وإذا أصابتك مصيبة فقل : ((إنا لله وإنا إليه راجعون)) كما يقول أهل صفوتي ومودتي ، وإذا زلت بك القدم في مصيبتي فقل ما قال صفيي آدم وزوجته : ((ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين))

وإذا أشكل عليك أمر وأهمك رأي أو أردت رشداً وقولاً صواباً فقل كما قال خليلي إبراهيم : ((الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الديم ، رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ، واجعل لي لسان صدق في الآخِرين واجعلني من ورثة جنة النعيم)) .

وإذا ابتلاك الله ببلية فافعل ما ذكر الله عن داود عليه السلام ((فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب)) وإذا رأيت العُصاة من خلق الله والخاطئين من عباده ولم تدرِ ما حكم الله فيهم فقل كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام : ((إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)) .

وإذا استغفرت الله فقل كما قال محمد صلى الله عليه وسلم وأنصاره : ((ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)) وإن خفت ولم تدر بم يُختم لك فقل ((ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب)) .

6 . المراقبة حال أهل الحقيقة

قال الحارث المحاسبي :

حاسب نفسك في كل خطْرة وراقب الله في كل نفْس .

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكن قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر يوم لا تخفي منكم خافية .

إن النفس والقلب يحتاجان إلى تعاهد يومي بل إلى تعاهد بين الآن والآن وإلا ستشرد النفس ويقسوا القلب ويغفل ومن هنا اعتمد أهل السير إلى الله المراقبة والمحاسبة كوسائل لتزكية النفس ، يقول الإمام الغزالي رحمه الله :

[حُكي أنه كان لبعض المشايخ تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه فقل له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ، ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد منهم بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حي في يده ، فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال لم أجد موضه لم يراني فيه أحد إذ الله مطلع عليّ في كل مكان ، فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حُقَّ لك أن تُكْرم .

والمراقبة هي مقام الإحسان فقد سأل سيدنا جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإحسان فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أن تعبد الله كما تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) متفق عليه ((إن الله كان عليكم رقيباً)) النساء:1 ، ((أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)) الرعد:33

وسئل بعضهم عن قوله تعالى : ((رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه)) البينة ، فقال معناه : ((ذلك لمن راقب الله عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده .

والعبد لا يخلوا إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح .

- فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات .
- وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر
- وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها .

**

الإيمان في القلب :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((الإسلام علانية ، والإيمان في القلب ، والتقوى ها هنا)) يقولها ثلاثاً ويشير بيده الشريفة إلى صدره (رواه الإمام أحمد والبزار)

والتقوى هي مراقبة الجليل والخوف من يوم الرحيل والعمل بالتنزيل ، والتقوى التي تقر في القلب فتُحكِمُ فيه الإيمان هي روح المعرفة ، فيا أيها العابدون لقد جعل الله تعالى كل شئ قدْرا ، ولكل قدْر حداً ، وكل حد سببا ، ولكل سبب أجلاً ، ولكل أجل كتاباً ، ولكل كتاب أمراً ، ولكل أمر معنى ، ولكل معنى صدقاً ، ولكل صدق حقاً ، ولكل حق حقيقة ، ولكل حقيقة أهلاً ، ولكل أهل علامة .

فبالعلامة يُعرَفُ المحق من المبطل ، وكل قلب أقعد على بساط تحقيق المعرفة وقع بسيماء المعرفة على وجهه ويظهر أثرها على حركاته وأفعاله وأقواله كما قال تعالى : ((تعرفهم بسيماهم)) وقد قيل ليحيى بن معاذ : ما بال العارفين أحسن وجوهاً وأكثر هيبة من غيرهم ؟ فقال : لأنهم خلوا بالله مستأنسين وقرُبُوا إليه متوجهين ، وفزعوا إليه متوالهين فكساهم الله بنور معرفته فبه ينطقون وله يعملون ومنه يطلبون وإليه يرغبون ، أولئك خواص الله السابقون ، سعيهم في طاعة الله تعالى من غير علاقة ، وينصحون العامة من غير طمع ، مشتاقون إليه منيبون ، قلوبهم له وَجِلة ، نفوسهم وحشية (والوحشة من الخلق إليه وتحير الدهشة للعارفين فاللهم زدنا فيك تحيرا) وقلوبهم عرشية (ساجدة بنور الله تحت العرش) وعقولهم مغشية (بحب الله مستأنسة لاهية عن الدنيا بما فيها) وأرواحهم ياسينية (قدوتها قلب نبي الله ومصطفاه) ذكر الله يحميهم من شر الوسواس ، قولبهم معصومة عن فتنة الناس ، باب الملكوت لهم مفتوح حالهم الغربة ، وقلوبهم في صدروهم غريبة ، وسرهم في نفوسهم غريبة ، فلا يستريحون من غم الغربة ووحشتها مالم يصلوا إلى الحبيب تعالى ، فأمورهم عجيبة ، والمولى لهم طبيب .. من علاماتهم :

حب الجليل ، وترك الكثير والقليل ، واتباع التنزيل ، والخوف من التحويل .

خوفهم هرباً ، وصفتهم نصَباً ، وحبهم شغفاً ، ومعرفتهم طرباً .

قال النسّاج رحمة الله عليه :

يخرج أكثر أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا طيباتها المقصودة ، قيل : وما هي : قال : سرور المعرفة ، وحلاوة المنة ، ولذائذ القربة ، وأُنس المحبة

وقال محمد بن واسع رحمه الله تعالى : حقٌ لمن أعزه الله بمعرفته أن لا يذل نفسه لغيره ، وحقٌ لمن والاه الله بولايته أن يقوم بحقه ، وحقٌ لمن أكرمه الله بصحبته أن لا يميل إلى غيره ، ولا يعمل بهوى نفسه .

وقال أبو يزيد رحمه الله : إن في الليل شراباً لقلوب العارفين تطير به قلوبهم حباً لله وشوقاً إليه إلا أن الناظرين إليه لا إلى غيره ذهبوا بصفوة الدنيا والآخرة .

ـ والمعرفة شجرة يغرسها الله في بستان قلب عبده المؤمن يتعهدها بكرمه ويرسل إليها سحائب رحماته ، ولذا فإن المراقبة أغصان شجرة المعرفة فكما جاء في الحديث ((الكيّس من دان نفسه وعَمِل لما بعد الموت)) (1) فإن الله إذا أراد بعبده خيراً أيقظه من نومة الغافلين وأنعم عليه بشرح القلب وأذهب عنه الوهم وأكرمه بالحياء والخوف واليقين وأذهب عنه الشك وجرأة الأمن .

ـ أعظم حديث في المراقبة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : ((إن ثلاثة من بني اسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم ، فبعث اللهُ ملَكاً فأتى الأبرص ، فقال : أي شئ أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذي قذرني الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً ، قال فأي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ، فأُعطي ناقة عشراء فقال : بارك الله لك فيها ، فأتى الأقرع فقال : أي شئ أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس ، فمسحه فذهب عنه وأُطي شعراً حسناً ، قال : فأي المال أحب إليك ، قال : البقر ، فأعطى بقرة حاملاً ، وقال : بارك الله لك فيها ، فأتى الأعمى فقال : أي شئ أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إليَّ بصري فأبصر الناس ، فمسحه الله فرد إليه بصره ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والداً فأنتج هذان ووّلد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم ، ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ! فقال : إن كنت كاذباً في دعواك فصيّرك الله إلى ما كنت .

(1) رواه الترمذي وحسّنه.

فأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما ردّ هذا ، فقال : إن كنت كاذباً فصيّرك الله تعالى إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري فقال : قد كنتُ أعمى فرد الله إليّ بصري فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشئ أخذتَه لله عز وجل .

فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم فقد رضي الله عنك وسخِط على صاحبيك))

متفق عليه .

هكذا ابتلى الله ثلاثتهم مع علمه سبحانه بحالهم قبل وجودهم فعلمه أزلي شامل للموجود والمعدوم قبل وجودهفبعث إليهم بملَك في صورة إنسان قبل المعافاة فعافاهم بإذنه وأغناهم بفضله ثم عاد إليهم بعد المعافاة والغنى ؛ فإن من صفات الصالحين المراقبين عدم نسيان حالهم وصفتهم قبل الغنى من الثياب والخلقة وخدمة الناس وضيق المعاش ليعرفوا الله بالنعم ؛ فإن من نسي حاله أيام صغره قل شكره وربما قال : نحن بمحمد الله نشأنا أباً عن جَد ليوهم من لم يعرفه أن حاله لم يزل كذلك ، وقد دخل شخص على معن بن زائدة فقال له :

أتذكر إذ قميصك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال معن : أذكر والحمد لله رب العالمين . فقال :

فقد جلّ الذي أعطاك مُلكاً وعلمك الجلوس على السرير

فقال : جل ربي وعز . فقال :

فجُد لي يابن ناقصة بمال فإني قد عزمتُ على المسيرِ

فأمر له بمال جزيل وشكر له تذكيره الحالة التي لعله نسيها فذكره بنعم الله ليقوم بحق شكرها ، وهذا أساس من أسس المراقبة لحقوق الله عز وجل .

7 . حديث المستضعفين المتوكلين

في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي وحسنه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ((كنتُ خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك ، رُفعتْ الأقلام وجفت الصحف)) .

هذا الحديث ورد كذلك في رياض الصالحين في باب المراقبة فهو تأكيد لمعناها الذي سبق وتحدثنا عنه ، لكنه من ناحية أخرى حديث يعتمد عليه أولو الفهم منضعفاء الخلق ومن أصيب بخوف أو مر بضائقة ، وهو حديث جامع ففيه الأمر بحفظ الله وملازمة تقواه واجتناب نواهيه حتى يحفظك الله في نفسك وأهلك ودنياك ودينك خاصة عند الموت إذ الجزاء من جنس العمل ((وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم)) وهذا من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم فقد جمعت سائر أحكام الشريعة قليلها وكثيرها .

فإذا حفظت الله فيما أمرك ونهاك وجدته معك بالحفظ والإحاطة والتأييد والعناية والإعانة ونظيره ((إن الله مع المتقين)) .

فتجده حيثما توجهت وتيممت من أمر الدنيا والآخرة فخزائن الوجود بيده تعالى وأزِمتها إليه إذا لا قادر ولا معطي ولا متفضل غيره ((قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يُخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ؟! فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون)) يونس : 31 ، 32

يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي :

(أيست من نفع نفسي لنفسي فكيف لا أيأس من نفع غيري لنفسي ، ورجوت الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي ؟!!))

ولما نجا من الاستعانة بالغير من المخلوقات وترك التوكل على السِوى من الموجودات من دون رب الأرض والسماوات ، فخرج من ذلك إلى باب التوكل ((ومن يتوكل على الله فهو حسبه)) أعطاهم تعالى ما تمنوا .

كتب الحسن لعمر بن عبد العزيز يقول :

((لا تستعن بغيره تعالى يكلك الله إليه)) اللهم لا تكلنا لأنفسنا فنعجز ولا إلى الناس فنُضَّيع .

فحد الله له في بلوغ الضر والنفع فهو الضار النافع ((إن يمسسك الله بضر فلا كاشف لـه إلا هو وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم)) يونس : 107

وفي بعض الكتب الإلهية : [وعزتي وجلالي لأقطعن أمل من يؤمِل غيري ولألبسنه ثوب المذلة عند النـاس ولأحجبنه عن قربي ولأبعدنه عن وصلي ولأجعلنه متفكراً حيراناً ، يؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي وأنا الحي القيوم ، ويطرق بالفكر أبواب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعـاني !!]

فمن علم ذلك وعلم أن تقادير الكائنات كاللوح المحفوظ وقد فُرغ منهـا من أمد بعيد ، من علم ذلك وشـهده بعين بصيرته هان عليه التوكل على خالقه والإعراض عما سواه .

**

8 . الذكر جنة المحبين !

يقول ابن القيم رحمه الله : الرغبة في الله وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه رأس مال العبد ومِلاك أمره وقوام حياته الطيبة وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرة عينه ، ولذلك خُلق وبذلك أُرسلت الرسل وأُنزلت الكتب ولا صلاح للقلب ولا نعيم إلا بأن تكون رغبته إلى الله عز وجل وحده فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده كما قال الله تعالى : ((فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب)) الشرح : 7 ، 8

وعن يحيى بن معاذ قال : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين : بكاؤه على نفسه وشوقه إلى ربه .

وقال بعضهم : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطى ملك سليمان لم يشغله عن الله طرفة عين وقيل : العارف أَنِس باله واستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فإغناه عن خلقه وذل لله فأعزه في خلقه .

وقال ذو النون المصري : لكل شئ عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

فلا حياة للقلب إلا بالله ، ومتى واطأ اللسان القلبَ في ذكره وواطأ القلب مرادَ حبيبه منه واستقل له الكثير من قوله وعمله واستكثر له القليل من بره ولطفه ، وعانق الطاعة وفارق المخالفة وخرج عن كله لمحبوبه فلم يَبْقَ منه شئ وعُدِمَ القرار دون ذكره والرغبة إليه والاشتياق إلى لقائه ولم يجد الأُنس إلا بذكره وحفظ حدوده وآثره على غيره فهو المحب حقاً

وقد ورد عن أبي الدرداء أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورِق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ... ذكر الله)) .

وعن الحسن البصري قال : قيل : ((يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : أن تموت ولسانك رطب بذكر الله))

وروى أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((ذكر الله عَلَم الإيمان وبراءة من النفاق وحصن من الشيطان وحرز من النار)) .

وعن عبد الله بن عمير قال : ((من قال الحمد لله تفتح له أبواب السماء ، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض ، والتسبيح لله تعالى لا ينتهي إلى ثوابه علم أحد دون الله تعالى ، قال الله تعالى : إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في وحده ذكرته وحدي ، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ أحسن منه وأكرم)) .

قال الفقيه رحمه الله : الذكر من الله عز وجل العفو والمغفرة ، فإذا ذكر العبدُ اللهَ تعالى ذكره تعالى بالمغفرة " فأذكروني أذكركم " .

وقال الفضيل بن عياض رضي الله عنه : ((إن البيت الذي يذكر فيه اسم الله تعالى يضئ لأهل السماء كما يضئ المصباح لأهل البيت المظلم ، وإن البيت الذي لا يذكر فيه اسم الله تعالى يظلم على أهله)) .

واعلم أن معنى قول الله تعالى ((يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً)) يعني اذكروه في جميع الأحوال ، وتفسير الذكر في الأحوال كلها أن العبد لا يخلو العبد من أربعة أحوال : إما أن يكون في الطاعة أو في المعصية أو في النعمة أو في الشدة فإن كان في الطاعة فينبغي أن يذكر الله تعالى بالتوفيق ، ويسأل منه القبول ، وإن كان في المعصية فينبغي أن يدعو الله بالامتناع ويسأله التوبة ، وإن كان في النعمة يذكره بالشكر ، وإن كان في الشدة يذكره بالصبر .

واعلم أن في ذكر الله تعالى خمس خصالم محمودة :

أولها : أن فيه رضا الله تعالى .

والثاني : أنه يزيد في الحرص على الطاعات .

والثالث : أن فيه حرزاً من الشيطان إذا كان ذاكراً لله تعالى .

والرابع : أن فيه رقة القلب .

والخامس : أن يمنعه من المعاصي .

**

. أهمية الذكر للإنسان :

قد يضعف الإنسان في متاعب الحياة إلى حد الهوان وقد يشتد مع المنافع إلى حد الطغيان ، لكن المؤمن لا يزيغ ولا يطغى بل يظل متماسكاً في الحالتين .

والآلام تكشف الضعف الإنساني وتدفع العاقل دفعاً للوقوف بباب الله يطلب العافية ويرجو رحمة ربه يقول صلى الله عليه وسلم طالباً ذلك من المؤمن : ((ليسترجع أحدكم في كل شئ حتى في شسع نعله فإنها من المصائب))

ـ والشسع رباط الحذاء والاسترجاع بقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ومن سنة الحياة الجد والجهد والتصبر ويتبعها الثمر ((فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً)) .

لهذا : ((فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب)) الشرح ..

والمؤمن حين يجأر بأسماء الله الحسنى يَعلم أن هذا هو طريق الموصول لله تعالى وهكذا علمنا حبيبنا سبحانه ((ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها)) ، ووعدنا سبحانه بعد الدعاء بالإجابة فقال ((وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون))

البقرة : 186

وقد كان صلى الله عليه وسلم يأخذه النعاس بعد التعب الطويل في الجهاد فيستيقظ بعد ساعة أو بعض ساعة ليلبي أمر الله بالتسبيح والتحميد في جنح الليل كما كان أثناء النهار ؛ ألم يقل له مولاه :

((واذكر اسم ربك بكرة وإصيلاً ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً)) الإنسان : 25 ، 26

**

إن البشر وقد خُلقوا من الطين إلا أنهم مجبولون على حب الارتقاء ، والمؤمن خاصة موصول بالله تعالى وهكذا كان قدوتنا صلى الله عليه وسلم لا يحتبس في سحن الدنايا أو يقعد عن نُصرة الحق والخير .

وقد خلق الله آدم على صورته واستخلفه في هذه الأرض ليكون نائباً عنه ، ومكنه بل كلفه أن ينشط في استغلال خيرها وامتلاك أمرها وأوصاه أن يحترم أصله الإلهي العريق فلا يتدلى عنه إلى نزعات الطين ووساوس الشياطين فيصبح إنساناً ربانياً بكثرة ذكره لربه بلسانه وقلبه وجوارحه وكيانه (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين))

الأنعام 17 ، 18

وبهذا يصبح متصلاً بالله محباً لله عابداً ذاكراً لله في كل لمحة ونفس ، في كل سكناته وحركاته .

****

وفي الختام .. أدعو الله تعالى أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع ابتغاء مرضاته وأن يجعله في ميزان حسناتي وما كان فيه من خير فهو من الله وما كان فيه من نقص أو خطأ فمني ومن الشيطان ، والله أسأل المغفرة والسداد والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ..

15 / رمضان / 1426 هـ

المحلة الكبرى

المراجع :

1 ـ أنوار الشريعة ومعارج الحقيقة : د/ حسن عباس زكي تحقيق أ / خديجة النبراوي ، النهار للطبع والنشر والتوزيع .

2 ـ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها : أحمد عبد الجواد دار الباز للنشر والتوزيع .

3 ـ " الله " د / مصطفى محمود : دار المعارف .

4 ـ أسماء الله الحسنى : الإمام شمس الدين الدمشقي دار ابن كثير .

5 ـ رأيت الله : د/ مصطفى محمود : دار المعارف .

6 ـ الجانب العاطفي من الإسلام : الشيخ محمد الغزالي دار الدعوة للنشر والتوزيع .

7 ـ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة : ابن قيم الجوزية : المكتبة التوفيقية .

8 ـ أنوار الحقيقة ، مباحث في التصوف والسلوك : بديع الزمان سعيد النورسي : دار سوزلر ـ القاهرة .

9 ـ قيم من التراث : د/ زكي نجيب محمود : دار الشروق

10 ـ والموعد الله : خالد محمد خالد دار ثابت .

11 ـ لواقح الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية : الإمام عبد الوهاب الشعراني .

12 ـ الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري .. شرح ابن عباد النفزي : مركز الأهرام للنشر والترجمة .

13 ـ في ظلال المحبة : عبد الهادي حسن وهبي : دار ابن عفان للنشر والتوزيع السعودية .

14 ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية . دار البيان بدمشق .

15 ـ الوصايا لابن عربي : دار الغد العربي القاهرة .

16 ـ دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين تأليف : محمد بن علان الصديقي الشافعي الأشعري المكي .. دار الريان للتراث .

17 ـ فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء : الشيخ محمد الغزالي : دار الاعتصام .

18 ـ تنبيه الغافلين للإمام أبي الليث السمرقندي : دار المنار .

19 ـ روضة المحبين ونزهة المشتاقين للإمام ابن قيم الجوزية ـ مكتبة الصفا .

20 ـ حالة أهل الحقيقة مع الله : سيدي أحمد الرفاعي ـ دار جوامع الكلِم

21 ـ أوجز الكلم في شرح ثلاثين حديثاً من جوامع الكلم : مجدي عرفات ـ دار الخلفاء .

الفهرس :

ـ ابتهال.

1 ـ اللطف الخفي .

2 ـ حقوق سيدك

- ـ الاستقامة طريق الجنة .
- ـ حقيقة العبودية .

3 ـ حب الله

- ـ الطريق إلى الحب الإلهي .
- ـ محبة الله فوق كل شئ .
- ـ المحبوب الواحد الأحد .
- ـ أصلُ المحبةِ مقامُ الإحسان .
- ـ في رحاب المحبة والمحبين .
- ـ صفات المحبين .
- ـ المحبة كمال العبودية .

4 ـ الرضا بالله

- ـ أي العمل أفضل ؟
- ـ منزلة الراضين .

5 ـ وقفات

- ـ إفادة .
- ـ تعريف .
- ـ تعلم وافهم .
- ـ حكمة .

6 ـ المراقبة حال أهل الحقيقة

- ـ الإيمان في القلب .
- ـ أعظم حديث في المراقبة .

7 ـ حديث المستضعفين المتوكلين .

8 ـ الذكر جنة المحبين

- ـ الشوق بريد الذكر .
- ـ فضل الذكر.

ـ أهمية الذكر للإنسان